مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد:07 العدد 01 جانفي (2023) ص 159- 167

السجن في الأدب الروسي"ذكريات من منزل الأموات" لفيودور دوستويفسكي - أنموذجا-

The Prison in the Russian Literature

« The House of Dead » by Fyodor Mikhailovich Dostoevsky as a sample

آمال عبودي *
جامعة عباس لغرور-خنشلة- (الجزائر)
doctorat253@gmail.com

الدكتور:عمرو عيلان
جامعة عباس لغرور-خنشلة- (الجزائر)
ailaneomar@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022 / 06 / 06
تاريخ القبول:
2022 /12 / 26

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الأدب الروسي
- ✓ دوستويفسكي
- ✓ أدب السجون

الملخص:

تعددت الأعمال الروائية والقصصية والشعرية كذلك التي اتخذت من السجن كثيمة رئيسية، من أشهرها رواية " ذكريات من منزل الأموات" للكاتب الروسي "فيودور ميخائلوفتش دوستويفسكي". كان منزل الأموات الذي تحدث عنه دوستويفسكي هو سجن الأشغال الشاقة بسبيريا، كان الحديث عنه مفصّلا على لسان بطل العمل الروائي "بتروفتش جوريانشيكوف" الذي قبع في سجن الأشغال الشاقة بسبيريا.

تحاول هذه الدراسة أن تستجلي بمنهج موضوعاتي أهم المظاهر السلبية والإيجابية التي وردت في العمل الروائي السابق الذكر، وكيف تعامل دوستويفسكي مع تجربة السجن.

Article info

Received *06/ 06 / 2022*
Accepted *26/ 12 / 2022*

Abstract :

The prison literature is about an experience and sufferance in the prison; many authorswrite about their experiences either inside or outside the prison.Numerous novels, stories and poetic works use the prison as their

* المؤلف المرسل

main theme. One of the most famous literary works is "The House of Dead" by the Russian writer Dostoevsky. The House of dead in this novel is the forced labour prison in Siberia. The hero of this novel "PetrovichGoryanchikov" speaks in details about the hard life in the prison. This study follows the thematic analysis attempting to represent the main negative as well as the positive features in this literary work and how Dostoevsky dealt with his experience in the prison

Keywords:
- ✓ *The Russian Literature*
- ✓ *Dostoevsky*
- ✓ *Prison literature*

. مقدمة:

فُرضت في عهد القيصر "نيقولا الأول" رقابة مشددة حول المثقفين والأدباء، وكل من له علاقة بالفكر والأدب ولم يُترك أي مجال لحرية التعبير. تأتّى هذا التضييق بعدما قامت جماعة الديسمبريين (Les décembristes) بتمرد على القيصر " نيقولا الأول" بغية الإطاحة به وكان ذلك بتاريخ 14 كانون الأول/ديسمبر 1825، فأُعدم الجزء الأكبر من مريديها والجزء الآخر نُفي إلى سيبيريا. لتظهر بعدها جماعة "بتراشيفسكي(petrachivsky)" الذي كان يشغل منصبا في الدولة. كان أصحاب "بتراشيفسكي(petrachivsky)" يجتمعون كل مساء ليناقشوا المستجدات من القضايا الأدبية هذا جهرا، أما في السر فكانوا يتناقشون حول القضايا السياسية في البلاد؛ حيث كانوا جميعا ضد السياسة التعسفية التي ينتهجها القيصر"نيقولا الأول" مع الشعب عموما ومع النخبة المثقفة خصوصا. ورأوا أن الحل للتعبير والتغيير هو الكتابة.

كان دوستويفسكي واحدا من البتراشيفسكيين يحلم هو الآخر بواقع أفضل لبلاده، كانت نفسه تتوق لتغيير الأشياء السلبية، وحين بلغ سيل الظلم الزبى، وفُقد كل أمل في تحرير العبيد، والأسياد يزدادون كل يوم عربدة وقسوة، قرر "بتراشيفسكي (petrachivsky)" القيام بالثورة، وتلا دوستويفسكي عشيتها صفحات من بعض أعمال "ديرجافين" و"غوغول" التي تتضمن احتجاجا على العبودية والرق كما تضمنت تمجيدا حارا لدور الكاتب. وسيق دوستويفسكي ليلتها من سرير نومه إلى السجن الاحتياطي إلى المحاكمة ثم إلى ساحة الإعدام والتي نجا فيها من الموت بأعجوبة قبل أن يصل حبل الأنشوطة إلى عنقه. وبدل الإعدام عوقب بالنفي إلى سيبريا حيث هناك ينتظره سجن الأشغال الشاقة ليمكث فيه سنوات عشر بسبب ليس بالهين في نظر السلطة القيصرية وهو: المطالبة بحق المساواة بين العبد والسيد، وثانيها هو الإشادة بدور الكاتب في المجتمع.

بعد أن سلخ دوستويفسكي عشر سنوات في سجن "أومسك" بسيبريا لم يدع هذه التجربة تمر هكذا دونما تقييد فدونها وسماها:" ذكريات من منزل الأموات" وخلّد بذلك تاريخ السجون الروسية في عهد القيصر المستبد "نيقولا الأول"، وحقق ما كان يصبو إليه وهي المساواة في عهد القيصر "نيقولا الثاني" هذا الأخير الذي ذرف دمعا سخينا بعد قراءته "ذكريات من منزل الأموات" فأصدر قرارا بإلغاء العقوبات الجسدية من السجون الروسية.

عتبة الأسئلة:

- لماذا هو منزل للأموات؟ أليس من الأصح أن ننسب المنزل للأحياء والقبور للموتى؟ ولماذا نُسب الموت لأشخاص لا زالت نبضات عروقهم ودقات قلوبهم شاهدة على الحياة؟

- كيف حضر السجن كثيمة في مدونة" ذكريات من منزل الأموات" ؟

- كيف كانت نظرة "دوستويفسكي" لتجربة السجن؟

2.قراءة موضوعاتيةلمدونة " ذكريات من منزل الأموات":

1.2 قراءة في عنوان المدونة " ذكريات من منزل الأموات":

تُعد " ذكريات من منزل الأموات" مجموعة من الذكريات التي استقرت في ذاكرة السجين السياسي " ألكسندر بتروفتش جوريانشيكوف" والمعروف أن لا شيء من الذكريات يستطيع أن ينطبع في الذاكرة لأمد طويل إلا ما أدخل السرور على نفس صاحبها أو ما آلمها بشدة، وبما أن هذه التجربة كانت صعبة للغاية بالنسبة لبتروفتش فقد استقرت في مخيلته وسجّلها لكي تظل حاضرة لا تؤمن بفلسفة الغياب.

كانت أولى الذكريات التي تحدث عنها، ذكرى الطريق الذي سلكه قرابة الشهر ليبلغ السجن؛ فقد كان طريقا متعبا شاقا وثقيلا، اليوم الواحد فيه مقدّر بألف سنة يخال من عايشه أن لا نهاية له – أقصد لا نهائية الطريق- لم يطُل الطريق على سالكيه مسافة بل مما حمل من:" شتائم بذيئة، وسباب مقذع، وإهانات مسمومة، وضحكات ساخرة يصحبها صليل الأغلال وصريف القيود."[1] وليس هناك شيء أعسر على المرء وأصعب من أن يقطع ولو ميلا واحدا تهون فيه كرامته، ويُقصى حقه الإنساني، ويفقد فيه حريته الكاملة بعد ذلك. والأمرّ من هذا كله يعلم بأنه سيُغيّب عن عالم الأحياء، يُدفن رغم أن الروح تُعلن بين الفينة والأخرى أنها لازالت لصيقة بالجسد.

المنزل للحي والقبر للميت، وفي هذه الذكريات حدث انزياح أو خلخلة معرفية بين الدال ومدلوله فاختار صاحب "ذكريات من منزل الأموات" المنزل دون القبر لأن سكانه لا زالت تربطهم صلة بالحياة هي الروح، وأما عن صفة الموت فهو ليس الموت البيولوجي المعروف عند بني البشر إنما الموت الذي تصبح معه:" الحياة لا شبيه لها، والأحياء لا نظراء لهم."[2] السجناء يكفيهم موتا أن تُسلب منهم حريتهم الكاملة، وسلب الحرية معناه أن يفقد الإنسان حق التصرف في ذاته، ويُصبح تابعا للآخر مملوكا، وإذا بلغ السجين مرحلة التبعية والملكية للآخر هنا يزول مبدأ التكافؤ وتزول معها كلية الندية والمساواة، وفي هذه الحالة يصبح السجين كما الآلة لا يتصرف إلا برغبة مالكه، وكذا إحساس كفيل بقتل كل رغبة داخل السجين فيغدو هو والميت الذي فقد الإحساس بكل شيء سواء لا فرق بينهما. أموات غير أحياء لأنهم أُبعدوا عن الأهل والأصدقاء والمجتمع، بصفة أشمل حرموا من ممارسة حقهم الطبيعي في الحياة. وغابت عنهم جماليتها كما غابت عن الأجساد التي تتوسد التراب.

إذا فقد السجين كل ما يُحيط به، وكل ما يُشعره بالإنسانية فإنه يُنقل من إطار الإنسانية أو الهيومانية " L'humanisme" إلى إطار آخر يُفرغ فيه من كل محتواه ويغدو كما الشيء أي إلى الشيئية"Chosification" وحينها يحدث تغير في العلاقة التي كانت قائمة بينه وبين أفراد المجتمع قبل دخوله السجن؛ أي أنها تتغير من:" أنا- أنت التي تتضمن المساواة والاعتراف المتبادل بإنسانية الآخر وحقه في الوجود، ذاك الاعتراف الذي يُشكّل شرط حصولنا على إنسانيتنا من خلال الاعتراف بنا كقيمة إنسانية، بدل هذه العلاقة تقوم علاقة أنا- ذاك هو الشيء، هو الكائن الذي لا اعتراف به وبإنسانيته وقيمتها أو بحياته وقدسيتها."[3] أليست عملية إلغاء حياة السجين وسلبه إنسانيته وتشييئه مساوية لحالة موته؟

2.2 تجليات ثيمة السجن في مدونة " ذكريات من منزل الأموات":

يغفو السجين السياسي " ألكسندر بتروفتش جوريانشيكوف" ويستفيق في سجن سيبريا على التعذيب والعمل الشاق، ولا يدع هذا الأمر يمر عليه هكذا كقدر محتوم، بل يعاين الواقع الهامد والهادم للجسد والنفس، وأثناء عملية المعاينة كانت تلوح له أشياء سلبية وأخرى إيجابية، وبين السلب والإيجاب تتأرجح نظرة "ألكسندر جوريانشيكوف". هذه السلبيات

والإيجابيات التي تخللت العمل الروائي هي بمثابة موضوعات (ثيمات) متفرقة أسهمت في البناء الكلي للثيمة الرئيسية للمدونة وهي ثيمة (السجن) .

يمكن تقسيم الثيمات الجزئية إلى قسمين:سلبيات السجن، وإيجابيات السجن

3.سلبيات السجن:

يُشعر السجن السجين بالعدمية والهوان، ذلك أنه فقد حريته، وليس بالأمر اليسير أن يُسلب المرء حريته؛ فلو أنه خيّر بين العيش مقيّدا وبين الموت حتما لاختار الثانية؛ لأن الحرية هي الحياة ذاتها:" تصوروا أن رجلا يملك الملايين قد شُدّت على عنقه حبل أفلا يتمنى هذا الرجل أن يهب كل ما يملك من ملايين في سبيل نشفة هواء؟"[4]. هذا عن السلبية العامة للسجن أما السلبيات الواردة في المدونة متمثلة هي النقاط التالية، أولها:

***تغييب الفردية الذاتية للسجين:** وردت مظاهر تغييب الفردية في العمل الروائي بكثرة منها:

- حرمان السجين من الخلو إلى نفسه، وهي أقسى اللحظات التي يعيشها السجين، وإنه لأمر طبيعي أن يطلب المرء الخلو إلى نفسه وانعزاله عن الآخر ولو ساعات يرتاح فيها الجسد والفكر وإنه لحقا عذاب رهيب هذا:" الذي يُعانيه المرء حين لا يستطيع أن يخلو لنفسه دقيقة واحدة"[5]ويجد نفسه فيوضع حتمي للاختلاط بالآخر لشهور متتالية.

- توحيد الحلاقة واللباس؛ والهدف من هذا الفعل تذكير السجين بأنه لم يعد يتمتع بذاتيته وفرديته كما كان من قبل هو الآن مملوك وليس له حق التفرد والتميز.

- فرض السكنى المشتركة على السجين، فالغرفة الواحدة يُزج بها أكثر من عشرين شخصا، و:" السكنى المشتركة ليست رهيبة في مكان ما كما هي رهيبة في السجن: إن هناك أناسا لا يُطيق أن تعيش معهم، وإني على يقين من أن كل سجين قد قاسى من هذا الأمر دون أن يشعر."[6] وهنا تذوب خصوصية الفرد حين يكون مجبرا على مخالطة من لا يوافق ليل نهار.

- ذروة التحكم في الذات، وسلب السجين آخر المظاهر التي تشعر بكينونته هي التحكم بأموره الخاصة، فهذا الميجر يسأل الخفير حين وصول السجناء سجن سيبريا:

" – أليس معهما شيء؟

- معهما ثيابهما الخاصة يا صاحب النبالة الرفيعة.

- انتزع منهما كل هذا ما ينبغي أن يحتفظ بغير الملابس الخاصة، أما الملابس الداخلية الملونة فبعها بالمزاد إذا معهما منها شيء.

ثم أضاف يقول...وهو يلقي نظرة قاسية:

-لا يحق لسجين الأشغال أن يملك شيئا." [7] وهذا التجاوز من طرف السجّان للخطوط الحمراء هتك لآخر ستار لا يزال يواري بعضا من خصوصيات السجين المهان.

***التعذيب:**

يُعدّ التعذيب من المظاهر السلبية الأساسية التي تُمارس على السجين، كما أنه عملية تهديم داخلي وخارجي؛ فالداخلي ما تعلّق بالنفس، والخارجي ما تعلّق بالجسد، تُلحق عملية التهديم هذه الأذى بالسجين، يكون بعدها في:" حالة عجز جسدي فعلي، وتصدّع نفسي يُخرجانه من مجال الحرية الفاعلة والمشاركة والمُنتجة."[8] تعددت أنواع التعذيب الجسدي منها: التعذيب

بالسوط حتى يُصبح ظهر السجين:" متشققا متورما أزرق اللون تُغطيه بُقع من الدم."[9] ، ومنها أيضا التعذيب بالقيد هذا الأخير الذي يُعد بنية أساسية لازمة لا يكتمل السجن دونها، والهدف منها : الإمعان في إذلال السجين وإهانته؛ كانت القيود التي يكبل بها السجين في سجن أومسك:" مصنوعة من قضبان أربع بسمك الأصبع، تضمها ثلاث حلقات تُلبس تحت السروال وتُشد الحلقة الوسطى منها بحزام معقود على القميص."[10] وفي أكثر الأحايين ما كانت القيود تُصاحب السجين الممدد على سرير مرضه حتى لحظة الموت ولا تُفك عنه إلا حين تبلغ القلوب الحناجر، ويُعد هذا أكبر اعتداء على الذات الإنسانية وعدم احترام قدسيتها.

*** الاغتراب:**

يُعد الاغتراب من أهم مظاهر السجن التي تنعكس سلبا على ذات السجين، وتكاد تُغيّب عنه فسحة الأمل، وأول ما يُشعره بالاغتراب هو انفصاله عن عالم الحرية واتصاله بعالم العبودية، و:" هذه المعاناة بأشكالها المتعددة في هذا المكان المفرغ من الفاعلية والإيجاب جعلت من الذات في غربة نفسية عميقة، تمثّلت في انعدام الحرية والهول من المكان والكآبة فيه وسلبية تقدير الذات."[11]

*** الأخلاق الدنيئة:**

دناءة الأخلاق أمر مرفوض في كل العقائد والأديان، والفرد الذي لا يحمل ما يُؤهله لأن يكون منتميا لمنظومة الأخلاق يلقى نفورا ممن حوله لأن: " ذا الخُلق الخشن لا يأتلف ولا يُؤتلف يُوجد بينه وبين الآخرين لا يُمكن أن يُبصر معه أنوار الوداد، إن سوء الخلق يُثقل من قيمة المرء."[12]وما أكثر أصحاب النفوس الدنيئة الذين يعيقون المجتمع وهو يسير يبغي رسم مسار الكمال البشري. أما في السجون فهم أكثر تواجدا.

***استبداد السلطة:**

يزيد الاستبداد حدة بوجه خاص في السجون، فالسلطة تمتلك السجين ولا تترك له حق التصرف في ذاته، تجعله لسنين طويلة يعيش في حلقة مفرغة بين التعذيب والاستغلال، ومن حاد عن نظام السجن المفروض فمصيره العذاب الأليم:" فكان السجناء يخضعون لهذه الأنظمة وهذه العادات صاغرين."[13] خضوع السجناء للنظام ليس طوعا وإنما رهبة وخوفا، إذ لا يحق للسجين على الإطلاق أن يتذمّر أو يشكو من شيء ساءه ولم يرق له.

*** موت الضمير الإنساني وغياب الإحساس:**

تكرار مشاهد التعذيب في السجن بنوعيه النفسي والجسدي من شأنه أن يُغيّب الإحساس ويُميت الضمير الإنساني سواء لدى السجان أو السجين. ويُعد الإحساس الغائب والضمير الإنساني الميت من أكثر السلبيات التي تتبدى جلية لمن يُعاين واقع السجن المتهالك. نقل "ألكسندر بتروفتش" حين عايش لأمد طويل طائفة المجرمين على اختلاف وتفاوت جرائمهم الكثير من النماذج التي خبا بداخلها صوت الضمير الإنساني وما عادت تُحس حتى بأفظع الجرائم التي ترتكبها وبفظاعة التعذيب الذي ينهال على جسدها: " يبلغون من شدة المرح وقلة الاكتراث أن المرء لا يستطيع أن يُراهن أن ضميرهم لم يعرف الندامة في يوم من الأيام." [14]

2.3 إيجابيات السجن:

تتميز تجربة السجن بالبؤس والمرارة في كل تقلباتها، مفعمة بالمظاهر السلبية التي تُقصي كل أمل وإرادة حية داخل السجين، لكن "ألكسندر بتروفتش" لم يستسلم ولم يلحظ فقط الشق السلبي، بل كان يرى أمورا إيجابية، وهذا ليس بغريب عن نواميس الحياة فقد تولد أشياء إيجابية من رحم الفقدان نفسه، تنسي السجين هموم القيد والعزلة والسأم...وغيرها. من أهم الإيجابيات التي لاحظها بتروفتش في سجن " أومسك" وقيّدها في مذكراته هي:

*** التحدي:**

عُرف سجين الأشغال الشاقة " بسبيريا" بالتحدي وهو واحد من الصفات الإيجابية التي ظهرت للعيان نتيجة لعدم استسلام السجين لعذابات جلاده، وقسوة السجن الذي يحيا بين جدرانه، وصريف القيود التي تغفو الأسماع وتستفيق على وقعه، وخاصة إذا كانت إرادة السجين قوية، تمده بقوة تجعله لا يبالي بشيء. استطاع "أورلوف" السجين الأنموذج الذي تحدّى علقم الحياة ولم يستسلم البتة رغم كل ما يمر به فقد:" كان يسيطر على نفسه سيطرة كاملةً؛ كان لا يشعر نحو القصاص إلا بالاحتقار ولا يخشى في العالم شيئا على الإطلاق. إن الشيء البارز فيه هو هذا النشاط الذي لا يهدأ، وهو الإرادة التي لا تتزعزع ...ينظر إلى كل شيء نظرة لا تبالي، فلا شيء في العالم يمكن أن يثير دهشته أو يوقظ استغرابه." [15] بفضل قوته وتحديه لم يُمكّن أحدا من جلاديه يوما أن يسيطر عليه وينظر إليه نظرة دونية، يبغي أن يعلّم سجّانه بأنه أقوى بكثير من لسعات السياط وضربات العصي، وأنه أقوى كذلك من أن يُهان وتُسلب إنسانيته فإرادته الصلبة وقوته النفسية قادرة على قهر إرادة السجان والانتصار عليه، وتجاوز محنة السجن وعذاباته.

***الصبر:**

غياب الفرد عن المجتمع وعاداته لسنوات ليست بالقصيرة، واعتياده جو السجن المنخنق والموبوء تعلّمه الصبر والتحمل، فمهما استشاط غيضه، وثار على واقعه فلابد من أن يتحمل نهاية المطاف لأنه سيمكث في المكان أبدا بعيدا، ولا سبيل أمامه سوى مقاومة كل الأمور التي يمقتها، ومع عليها سوى مقابلتها بالصبر وأول إيجابية يكتسبها السجين من السجن هي تعلم الصبر.

***اكتساب المهارات والفنون:**

يلج السجين عالم الفراغ القاتل بعد انقضاء الزمن المخصص للأشغال الشاقة، الفراغ الذي هو في حد ذاته مفسدة للروح والفكر، وأصحاب النفوس الإيجابية من السجناء، والإرادة القوية لا يدعون مجالا للفراغ بأن يسلب منهم قوتهم وأن يُذهب عنهم فتوتهم، فكانوا يبحثون عن سد ثغرات الوقت والساعات الطوال الثقال خاصة في الليل فوجدوا أن الطريق هو تعلم مهارة أو حرفة من أعظم الإيجابيات التي يخرج بها السجين وربما تكون السبب الأساس في انفصاله عن عالم الانحراف والفساد.

كان السجناء في سجن الأشغال الشاقة بسبيريا – بعضهم وليس جلهم:" يصلون إلى السجن وهم لا يعرفون ماذا يصنعون بأصابعهم العشرة، فإذا هم يأخذون يتعلمون من رفاقهم من المهن، حتى أُطلق سراحهم خرجوا من السجن عمالا مهرة، كان بينهم حذّاءون وإسكافيون ونحّاتون وقفّالون ونقّاشون" [16]

***التعايش مع الواقع المجوج:**

واقع السجن متهالك هامد، يتبدّى لمن يقاسي آلامه بأنه شيء أزلي لا يُقهر، ونتيجة حتمية أن يبلغ السجين وهو قابع في سجنه أقصى درجات اليأس ويفقد كل طموحاته وآلامه. من رحم هذا الأسى الذي يحياه السجين ليلا نهارا، تبرز إيجابية التعايش مع الواقع المجوج. وفي المدونة المدروسة كانت مظاهر التعايش بادية في طائفتين الأولى: تعايش السجين المثقف ممثلة في شخص " ألكسندر بتروفتش جوريانشيكوف" ، وطائفة السجناء المجرمين وهذا القسم يُمثله جل السجناء المجرمين اللامنتمين للطبقة المثقفة.

يُعتبر:" ألكسندر بتروفتش" سجينا مثقف، يقضي النصف الأكبر من وقته في تغذية فكره، وكانت أشد أيامه إيلاما وثقلا تلك التي قضاها في السجن محروما من متعه الفكرية، شكّلت بداية ولوجه السجن هاجسا، وتملّكه شعور متضارب يزاد من حدة خوفه من هذه التجربة. لكنه لم يدع هذه الأحاسيس جميعها بأن تتغلب عليه؛ لم يركن لهمومه، ولم يستسلم

للواقع الذي رفضه، وحدّث نفسه يبغى رسم أولى خطوات التعايش: " أدرك إدراكا تاما بأن هذه البيئة جديدة علي كل الجدة، وأنني أسير فيها في ظلمات...قررت أن أتصرف التصرف الصريح الواضح الذي يمليه علي ضميري وتأمرني به عواطفي..."[17] كانت أولى خطوات التعايش التي انتهجها بتروفتش هي إقناع نفسه بأن هذه البيئة ليست بيئته، وليست مبتغاه، وليست واقعه الذي يرتضيه لكنه ألزم نفسه بمسايرتها، وهذا التفكير دال على وعي الإنسان وقدرته الذاتيةعلى التعامل مع السلبيات والعقبات الكؤود في الحياة، كما تدل كذلك على سمو الفكر ذلك أن:" الأفكار العالية تمنع الإنسان الواعي من أن يصبح ألعوبة بيد القلق، إن الذي ربيت قواه الفكرية نافذة قوية حتى أصبحت مركز الثقل في وجوده، يتّمكن حين الوقوف على أعتاب الحوادث المرّة أن يتخذ حالة إيجابية فكرية، ويكون كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف" [18]

أما عن السجناء المجرمين فقد كان تعايشهم مع السجن عن طريق الإبداع؛ ذلك أن الإبداع لا يمكن قصره على بريء دون مجرم، أو محرر دون مقيد، والقدرة العقلية شيء معنوي من المستحيل أن تطاله يد السجان أو السلطة لتطمسه وتلغي كينونته، وهي الجزء الوحيد الذي تبقى للسجين فرصة السيطرة عليه. وتبعد عنه الجمود وتجعله يمتاز بالمرونة وإنتاج العديد من الأفكار التي ساعدتهم على تجاوز مرارة السجن؛ هذه المجموعة من الأفكار جمعتها أروع مسرحية أبدعها المساجين احتفالا بعيد ميلاد اليسوع. حاول السجناء في هذا العيد التعايش مع واقع السجن والروتين القاتل على مدار السنة ومحاولة بعث روح جديدة تميزهم عن باقي الأيام، روح تميزت بالإيجابية والتفاؤل والمرح، كانت هذه الأفكار المبدعة تماما كما البلسم الذي يخفف ألم الجروح.

*** سبر أغوار النفس البشرية:**

عانى السجين " ألكسندر بيتروفيتش جوريانتشيكوف" عزلة مقيتة في سجن الأشغال الشاقة بسيبيريا، ولم يلاق هذا النبيل المثقف تهميشا من سلطة القيصر المستبد " نيقولا الأول " فحسب بل عانى التهميش والازدراء كذلك من السجناء المحيطين به الذين ضيقوا عليه كل شيء باستهزائهم وسخريتهم ونبذهم له خاصة في أيامه الأولى التي عانى فيها كثيرا من ألوان الحرمان من إقامة علاقة مع الآخر وما في ذلك من ألوان الصمود على تعدد أشكاله. لكنه في رواق الحياة هذا المفعم بالمأساة، والمعبد بالآلام قرر "بتروفتش" أن يكون إيجابيا وأن لا يدع العزلة تنال من جسده، فقرر في أوقات الفراغ أن يسبر في أغوار نفسية السجناء وأن يحفر في دواخلها بغية توصيف الذات الإنسانية، وبغية معرفتها أكثر وتقديم صورة عنهم تكون أكثر تهذيبا. حين تفرس في وجه المجرمين ولاحظ تصرفاتهم وطريقة عيشهم في السجن تبين أن هؤلاء:" المجرمون في كثير من الأحيان ضحايا الظروف الاجتماعية التي تحيط بهم، وليست الجريمة التي يقترفونها إلا مصيبة تنزل عليهم وشقاء يحل فيهم، فما أصدق غريزة الشعب حين يعطف عليهم ويطلق عليهم اسم (الأشقياء)"[19]

4. خاتمة:

اجتُث "ألكسندر بتروفتش جوريانشيكوف" من المجتمع أُقحم عشر سنوات في وسط لم يخبره قبل ذلك. كانت تلك سنوات عجاف لأنها أبعدته عن كل ما يتصل بالحياة؛ عشر سنوات من العزلة والعذاب، من التحقير والعقوبات المتلاحقة، من مشاهد الظلم وتغييب الإنسانية، من مشاعر العداوة والبغضاء التي يضمرها له السجناء. تغير رهيب في وتيرة العيش؛ حرمان من كل شيء: سأم مميت، ويأس قاتل... فحياة الأسر غير حياة الحرية فهي في السجن أشد إيلاما وثقلا ووطئا خاصة من الناحية النفسية، فضلا عن الألم الجسدي الذي تسببه متاعب السجن. تغييب الفردية، التعذيب الجسدي والنفسي، العزلة عن الآخر والإحساس بالاغتراب، أخلاق السجناء الدنيئة، استبداد النظام القيصري، قسوة السجان... وغيرها من المظاهر السلبية التي عمقت مأساته وغيبت النور عن حياته وأقصت كل أمل ورجاء في معاودة التأقلم والانخراط في جو الحياة الطبيعية مرة أخرى، وجعلت من روحه تبلغ أقصى درجات اليأس، وتفقد كل طموح و لا تترك سوى الأسى ولا شيء

غيره[20]. كل الظروف كانت مواتية بأن:" تُعذب جسده المتداعي بكل أدوات التعذيب، فمحك المحنة يجلو الحلاوة عن شبابه... ومنشأ الألم الجسدي يصل في عظامه، ومسمار الحرمان الحلزوني يتغلغل بقسوة حتى يبلغ قصب الحياة..."[21] . سَجْنُ الرجل في زهرة العمر، وذروة القوة الجسدية مصير لا يمكن تقبله بكل بساطة، وقدر صعب هو الإيمان به، وشيء طبيعي أن تكون الانطباعات الأولى التي ترسم في الذهن سلبية تعود آثارها على النفس.

تأرجحت ذات السجين بين سلبية السجن وإيجابياته "ألكسندر بتروفتش جوريانتشيكوف" بين أن يستسلم أو أن يعلو بهمته ويواصل طموحه، وأن يحيا بأمل وينتظر يوما تهب عليه نسائم الحرية ويستنشقها بعمق، وأن ينظر إلى تجربة السجن على أنها منحة وهبها إياه القدر ليعيش فترة عزلة يعيد فيها ترتيب الكثير من أمور الحياة، وفعلا كان الانتصار للمقاومة والإيمان بالقدر هذا الأخير الذي جعله:" يشعر في كل عداء إلا بفيض المحبة، كما جعله يرى في كل معاناة صحة وسلام"[22]

سيطر عليه بداية الأمر حزن غيبي مقيت، منعه من رؤية الخير في هذا المصير الذي آل إليه لكنه حين تفاءل أصبح لا يأبه بالمظاهر التي توحي باليأس وبالتثبيط، كل همه هو المحافظة على نشاطه وقوته، بل أخذ العبرة ممن هم حوله ممن انخفت وهج الحياة في عيونهم، طرد شعور الحزن واستقبل شعور الأمل حين آمن بأن السجن عطاء لا سلب، وسلم بأن القدر هو: شيء حاسم، على أنه جزء من حياته الحقيقية. رغم أن الأيام في السجن كانت ممضة وأليمة، بطيئة وحزينة لكنها علمت "بتروفتش" الصبر، الحياة بأمل وتفاؤل، بصمود وتعايش.

حين أعاد "ألكسندر بتروفتش" النظر في كثير من أمور حياته، آمن بأن السجن قد قتل بداية الأمر في نفسه أشياء كثيرة، لكنه في الآن نفسه فتح أشياء أخرى، علمه أشياء ما كان ليطلع عليه لولا هذه التجربة القاسية. كان يبدو:" هذا المصير أول الأمر قسوة لا معنى لها، وعداء أعماه الغضب، غير أن المرء يدرك حين يعيد النظر أن هذا المصير قد صيغ قاسيا كالمطرقة لأنه كان يراد منه شيء خالد، وأنه كان هائلا ليكون ملائما لرجل هائل، ذلك أنه ما من شيء يمكن أن يغطي ذلك الذي لا تحيط به المقاييس ما يستحق على نحو هادئ مريح"[23] كذلك كان الحكم السياسي قاسيا على "بتروفتش" بادئ الأمر أرهقه الأمر كثيرا حد التعب وأحزنه حد اليأس كان يرى فيه محنة لا يمكن تجاوزها .لكنه تغلب:"على جحيم المنفى وقسوته، بقدرته على التكيف مع تلك الأنماط البشرية... مواجها ذلك العذاب بصلابة الفنان وحساسيته، فاستعاد شخصيته، وقدر له أن يربح قضية الإنسان..."[24] بعد انقضاء الحكم، أدرك أن السجن محنة وابتلاء أراد أن يصنعا منه رجلا عظيما، رجلا خالدا، رجلا عاش في منزل الأموات ليعرف معنى الحياة، ويقدر قيمتها، حرمه ليعلمه معنى العطاء وجعله ييأس من أشياء كثيرة ليقدر قيمة الأمل بعد ذلك.

5. قائمة المراجع:

1- دوستويفسكي، فيودور ميخائيلوفتش. 1967. ذكريات من منزل الأموات. تر: الدروبي سامي. لبنان . دار ابن رشد. ط1. الأعمال الأدبية الكاملة. ج5. ص116

2- المصدر نفسه. ص25.26

3- حجازي، مصطفى. 2005. التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور). المغرب. المركز الثقافي العربي. ط9. ص39

4- دوستويفسكي. ذكريات من منزل الأموات. ص245

5- المصدر نفسه. ص10.

6-المصدر نفسه. ص46.

7-المصدر نفسه. ص 433.

8- حجازي، مصطفى. 2005.الإنسان المهدور(دراسة تحليلية، نفسية، اجتماعية). المغرب. المركز الثقافي العربي.ط1.ص128

9-دوستويفسكي. ذكريات من منزل الأموات. ص 100
10-المصدر نفسه. ص48
11-البطاط، رائد حميد. 2011، الذات والآخر في شعر السجون في العصرين العباسي والأموي (دراسة نفسية). أطروحة قُدمت كجزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه فلسفة في اللغة. كلية الآداب. جامعة البصرة. العراق. ص 129
12-اللاري، مجتبى.1992. دراسة في المشاكل النفسية والأخلاقية. لبنان. دار الصفوة. ط1. ص19
13-المصدر نفسه. ص30
14-المصدر نفسه. ص 28
15-المصدر نفسه. ص101
16-المصدر نفسه. ص38
17-اللاري،مجتبى. دراسة في المشاكل النفسية والاجتماعية. ص31
18-دوستويفسكي. ذكريات من منزل الأموات. ص 08
19-ف، برميليوف.. 1996. دوستويفسكي وعالمه الروائي. تر: بيومي حسن. الهيئة العامة المصرية للكتاب. ط1. ص07
20-يُنظر المرجع نفسه. ص07
21-تسفايج، ستيفان. 2003. بناة العالم (ديكنز، تولستوي، ستندال). دمشق. دار المدى. تر: جديد، محمد. ط2.ج1. ص159
22-المرجع نفسه. ص178
23-تسفايج ستيفان. 2003 . بناة العالم (هولدرن. تولستوي. بلزاك). دمشق. دار المدى. تر: جديد محمد.ط2.ج2. ص 568
24- بوشحيط، محمد. الكتابة لحظة وعي (مقالات نقدية). 1984. الجزائر.المؤسسة الوطنية للكتاب. ط1..ص 139،140.